الشيخ ابراهيم الحوراني

(٤) في الشعر

مما اورد له من اوائل شعره بيتان نظمهما ليكتبا تحت رسمه وهما : —

يا معشرَ الاهل ذا رسمٌ يذكركم ... أوفى محبٍّ بنى بالعهد للابدِ
اودعتُ روحي حماكم بعد فرقتكم ... فبشّروا الروحَ عذبي صورةُ الجسدِ

وبيتان آخران بهذا المعنى وهما : —

رسمي يمثّلني لمقلةِ من بهِ ... ولّعي وروحي في حماهُ تُقيمُ
يعقوبُ أشواقٍ اليكم مهجتي ... وانا بدينِ الحبِّ ابرهيمُ

وصاغ ابياتاً في السواك قال فيها : —

شاهدتها وسواكها في ثغرهِ ... بين العقيق فكان دمع الباكي
قالت بكى حسداً فقلتُ يُغيرني ... قبيل عود بشامةٍ وأراكِ
قالت وهبتُ لك السواك فقلت لا ... ولمالكِ مالي حاجة بسواكِ

ونظم تقريظاً لديوان المولى عثمان الضرير العراقي قال في مطلعه : —

نشر العراق على المقيم بشامهِ ... أرَجاً شذىً لوردهِ وبشامهِ

ومنهُ

يا ناظمَ الشهبِ الثواقبِ في الدجى ... اتركتَ للشعراء غير ظلامهِ
ما انت عثمانَ الضرير حقيقة ... بل انت ذو النورين في ايامهِ
لكنما اغمضتَ عن هذا الورى ... كي لا ترى ذا الجهل فوق مقامهِ

وقال متغزلاً في قصيدة يمدح بها احد السلاطين : —

اعلمتِ اي جوى واتيتُ ولوعِ ... بين الجوانح ساعة التوديعِ
حملتكِ جاريةُ المحيط كأنها ... برق سرى ليلَ النوى بهجوعي
جرت السفينة بالبخار وثارها ... جمر الحشى والماء لجّ دموعي
ما انسَ لا انس التفاتها ونذ ... عبث الفراق بشملنا المجموعِ
ونأت تلوّح للعميد تحيةً ... بديعِ بيعٍ كزهر ربيعِ
منديل كفٍّ طيبهُ من جبهةٍ ... تندى بلمعةِ عاشقٍ ممنوعِ

يعلو ويخلق في الهواء كأنهُ عَلَمٌ على حصنٍ اشمَّ منيعِ
ما كان اشبههُ بهجعةِ صيدٍ لولا سلامتهُ من التقطيعِ

ومنها في المدح : —

ظلُّ الاله على الرعية سيفهُ قطع الذئاب فصان كلَّ قطيعِ
محمولُ امرِ المجد موضوعُ العلى روحي فدى المحمولِ والموضوعِ

والقى في احد المحافل خطبة صدّرها بقصيدة مطلعها : —

قدم الزمانُ وصبوتي تتجددُ فكأنني في كلِّ عصرٍ أولدُ

ومنها

قالت شيبك أسودٌ في ناظري قلت الحقيقة ان لحظكِ أسودُ

وخطب في محفل آخر مفتتحًا خطبتهُ بقصيدة حسب عادتهِ قال في مطلعها : —

يا مَيُّ لستُ أخا الصبابةِ فاسألي عمَّن يهيم بغير هذا المنزلِ

ومنها

ذهب الشبابُ على جناح نعامةٍ واقى المشيبُ على اغرَّ محجَّلِ
قالت مشيبك عند ارباب الحجى طب اقوى بظباء دارة جلجلِ
تحت المشيب جواهرٌ لو قلّدوا جيدي بها مشت النجوم بمحفلي
فاجبتها ولقد رقصت لقولها رقصَ القضون على غناء البلبلِ
لم يبقَ من تلك الجواهر غير ما خبأتهُ لرجالِ هذا المحفلِ

ونظم قصيدة عنوانها « العالم في الشرق » وهي من غرر قصائده ومعجز شعره ومطلعها : —

ذو العلم بين الطرس والمرقمِ كالثَّيتِ بين العَضْبِ واللهذمِ
كلاهما يبغي علاه ولا يناله الاَّ بسفك الدمِ
والاوَّل الاولى بفضلٍ لما في سعيهِ من شامل المغنمِ
فكم جرى ذو العلم في مجهلٍ حتى جرى ذو الجهل في معلمِ
وكم رعى سِفْي مهمهٍ كوكبًا حتى اهتدى السارون بالاتجمِ
يجتاب ارجاء العلى رغبةً في كشف ما في الاطلس المظلمِ
طورًا تراهُ سِفْي جوار السهى وتارةً في جسيرة المرزمِ
يرسم من كيوانَ خطًّا الى يوحى بلا نقسٍ ولا مرسمِ

ومنها

يا ويل من يعلم في بلدةٍ فيها كثير الوفر لم يعلم
يسقى الروى الظمأى ولكنهُ اظمأ من ملٍ ومن غيلم
يكسو عراة الحيّ من نسجهِ لكنهُ اعرى من المبرم

وقال في ختامها

ذي حالة العالم في موطنٍ يكوى بهِ ذو الفضل باليسم
يركبهُ الجاهل من حلمهِ والمنطي صنوٌ لذي المحزم
لو انصف الدهر امتطى كلُّ ذي علمٍ اخا جهلٍ فلم يظلم

وقال في زوال الدنيا وقصر الحياة : —

يا غافلين تنبهوا ازف السرى وحدث مطيّ رحيلها الركبانُ
وحيّا الى دار البقاء فليس في دار الفناء لعاقل او طانُ
غبراؤها سوق الوغى وسماؤها فلك النحوس نجومهُ الاحزانُ
لا يسلم الجبار في حوماتها والمشتري في افقها كيوانُ
حكت العبادُ بها الهشيم وأصليت نار المصائب فالحياةُ دخانُ

وقال مقرظاً المقتطف في سنتهِ السادسة : —

هذي ثمار العلم ذُقها تعترف من لم يذق تمر المعارف ما عرف
قطفت لقذفها دون اتعاب اجتنى فجميع اثمار النهى في المقتطف

ونظم موشحاً دينياً مطلعهُ : —

لا يزيلُ الحزنَ او يروي الظما غيرُ صهباء الحبيب المؤنس
ربّ جود طهرت منهُ الدما كلُّ مختارٍ لهُ من دنس

دور

سيد الاكوان ان العبد لكْ بالذي ترضى لهُ كل الرضى
لا اقدّيس شهيدٍ او ملك قبلهُ بل لذي عنهُ قضى
ذاك شمس البرّ في اعلى فلكْ لاح فيهِ كلُّ مفديٍّ مضى
اشرق الابرار فيهِ انجما نيراتٍ في سماء الاطلس
رغمت بالشكر حتى رغما كلُّ شادٍ بالمقام الاقدس

وهو طويل قال في ختامه : —

ايها الهادي غوى قلبي ولم يسأل ارشد نعمة السنن
طالما حادت به هوج الظلم عن سبيل القصد لم يهد السنن
فاتخذه اليوم من بعض الخدم واثقاً بالنشر لا يخشى الكفن
واكسه التبريز ثوباً مثلما بالسنى يزري ببرد السندس
واختم التقديس حتى يختما بالنبي قبل ختم المرسل

وقال في وجوب التيمن وترك التشاؤم : —

ترسم الخير في كل الامور ولو شاهدت نار الرزايا في بوارقها
واستجد الصبر في حرب الخطوب وخذ رجاءك النصر سيفاً في مفارقها
ولا يسوءك غروب الشمس في غسق فانها كل صبح في مشارقها

وقال بعنوان « صوت الحق » : —

سر في سبيل الحق لا تخش الردى ابداً ولو زأرت قساورة الردى
واشهد بان الله ربك قادر يحيي الرفات غداً ولو طال المدى
ما كانت الاكوان من قدم ولم يخلق حكيم الكون دنيانا سدى
فغداً يحاسب كل نفس بالذي فعلت ويرفل بالسنى اهل الهدى

وقال في ختام تأبينه للعلامة المرحوم بطرس البستاني الشهير : —

يا غرس فضل لم يزل بستانه تجني به ثمر العلوم الانفس
غادرت ثمار الجنان بارضنا وغدوت في فردوس ربك تغرس
وملكت مفتاح السماء على الثرى فدخلت ابواب العلى يا بطرس

ثم شفع التأبين برثاة عصماء مطلعها : —

وطن الصفا نضبت عيون جنانه غبرى من الاجفان ذوب جنانه
وذوت حدائقه فناحت ورقه اسفاً فلبتها بلابل بانه
عبثت به هوج الردى فاستأصلت غرساً فنون العصر من افنانه
لولا فروع الفضل في جناته نضدت ثمار العلم من بستانه

وفي سنة ١٨٨٤ كتب في النشرة الاسبوعية مقالة وجيزة موضوعها المغفور له الخديوي محمد توفيق باشا فزانها برسمه الكريم وختمها بقصيدة في مدحه مطلعها : —

ما لاح من صوب العذيب بريقه الا ودمع الصب سال عقيقه

ربع اليه يرى الركابَ يقودهُ شوقٌ يبرّح والغرامُ يسوقهُ
اجرى به عبراتِ قيسٍ عندما شُدّت الى ليلى عليهِ طريقهُ
اذ بات يلقى من نوى سكانهِ ما مات في الاسكندرية بوقهُ
ايامَ دلاّلُ النوازلِ والردى راجت بضاعتهُ وقامت سوقهُ
فرأيت قطرَ الانس يرهب وحشةً من انسِ يبينَ قبيلهُ وفريقهُ
بغتِ الاعادي حفنةً فوقاهُ من رفع السماء وصانهُ «توفيقهُ»

وفي سنة ١٨٩٦ فجع بابنهِ المرحوم نسيب وهو في السابعة عشرة من عمرهِ فنظم فيهِ ثلث مراثٍ قال في مطلع الاولى : —

ما للمرابع اصبحت اطلالا وتحوّل الروض الاريضُ رمالا
تجري الرياح فلا تصادف في انوى وادي الحدائق يانعاً او ضالا
وغدا المرنّم في المغاني نائحاً يجد الهجيرَ ولا يُصيبُ ظلالا
اترى عدت باليفهِ عيس النوى سحراً فحوّل عدوُها الاحوالا

ومنها مشيراً الى والدة المرثي

كانت خلالاً لاشتمالك بالضنى فغدت وقد نزلت شعوب خيالا
وقفتْ على ذاك السرير كانما قلقُ الشراعِ يجاذبُ الادقالا

وقال في مطلع الثانية : —

صيّرتُ دمعي شرابي والامى قوتا حتى جرى من جفوني الدرُّ ياقوتا
وواصلتني عذارى لوعتي بنوى مَن بات حبل اقترابي منهُ مبتوتا
وسامرتني وأمُّ النجم رافدةٌ بناتُ نعشٍ وبات النجم مسبوتا
كأنهنّ بواكٍ فوقهُ قمراً يحكي نسيباً فأنساها المواقيتا

وقال في الثالثة مخاطباً والدة فقيدهِ : —

قلب الغريب على مصاب نسيبكِ رهن البليّةِ مثل قلب قريبكِ
اشبهت اخيلةَ الفقيد من الضنى بخضوركِ الموهومُ مثل مغيبكِ
ما وقّعتْ ورقٌ على عيدانها لحنَ النوى الاّ بصوتِ نحيبكِ
تبكين يوسفكِ العشيةَ والضحى والحزنُ يلهب في حشى يعقوبكِ

وتوفي حينئذٍ المرحوم فؤاد نجل خليل افندي سركيس فقال يرثيهِ ولم يخرج عن رثاء والدهِ لكثرة العلاقات والمناسبات بينهما : —

لا يا ساجعات الورق نوحي على الغصن المغنّى في الضريح
خذي بدل الغضا والبان سروًا سقتهُ كلُّ دامية الجروح
هنالك نادبٌ غصّاً كسيراً يعلك النواح على الصحيح
هنالك موجعٌ يبكي «فؤاداً» وذو الم يتوح «نسيب» روح
خليلي محنةٌ باتا وكلٌّ بكى نجلاً كاسمى الذبيح

ومنها

حملتما يا شريك الحزن وقراً به الحيارى كالنضو الطليح
فكم عزّيتني وأسالك نامٍ كسيل دمي من الجفن القريح
وكم عزّيتكم والجرح دامٍ وذا عطف الجريح على الجريح

ونظم في المرحوم الشيخ عبد الباسط الفاخوري الشهير مرثاة مطلعها : —

بني الحزن من تنعون فاز بقربهِ بديع البرايا ناظراً وجه ربهِ
فما مات عبد الباسط البرّ بل مضى الى جنة اقطابها بعضُ صحبهِ
وأطعم فيها ما أشتهى من اطايبٍ وأورد تسنيماً فلذّ بشربهِ

وفي سنة ١٩٠٦ توفي المأسوف عليهِ المرحوم شاهين شقير فرثاهُ وعزّى اخاهُ سعيد باشا شقير بقصيدة مطلعها : —

من اعظم الأرزاء عمرٌ مديدٌ ما زدتَ عيشاً فالبلايا تزيدُ
هذا اخباريه بعد ما مرّ بي ما عشرهُ شيّب رأسَ الوليدُ
تنغيص دنيانا قديمٌ فما على اديم الارض شيءٌ جديدُ
مدرسة الدهر التي هذبت ايوب شيدت منذ عهدٍ بعيدُ

ومنها

ما كوننا يا ليتنا لم نكن انفاسنا نارٌ ونحن الوقيدُ
كونٌ شقيٌّ كلُّ احداثهِ نوازلٌ لم ينجُ منها «سعيدُ»
ذو الجاه رب الفضل مولى النعى والعلم والآداب بيت القصيدُ
مهمُ الردى أصمى على غرةٍ شاهينهُ نسرَ النجوم المجيدُ
ومنها يا ايها الشهم الذي رأيهُ في معرك الارزاء مهمٌ سديدُ
ما رمت ارشاداً بما قلتهُ بل رمتُ ذكرى لتخبير الرشيدُ
ذكّرتكم حرصاً على مهجةٍ إحسانها عقدٌ على كل جيدُ

وفي هذا القدر كفاية للدلالة على منزلته الرفيعة بين الشعراء والمنشئين وارباب الحجى وما لهُ من الفضل على تلاميذهِ ومريديهِ . واختم مقالتي هذه بالقصيدة التي نظمتها رثاء لهُ وإكباراً لمصاب الشرق فيهِ رحمهُ الله عداد ما نفع وافاد وعزّى عن فقدهِ كل ناطق بالضاد . قلت بعنوان « النفس الحزينة »

حشاك وناراً في فؤادي قادحه ودمعي وشأني فالرزيئة فادحه
ولا ترجُ لي صبراً ففي حزينة وليست الى غير التفجع جانحه
تروح وتغدو والرزايا تسابق الـ رزايا اليها غاديات ورائحه
اقامت على قلبي الغموم مشيخة بكلكلها طول المدى غير بارحه
احاول بالسلوى التئاماً لجرحي الـ تدمي فتدميهِ الحوادث جارحه
ففي كل يوم لي الى الحزن والبكا دواعٍ واسبابٌ جفوني قارحه
وفي كلها ابكي فتروي الطيور عن شجوني وتغدو من حزني شارحه

***

اكتم ما بي والسواجم لاتني تنمّ على رغمي بسري بائحه
تسحّ وما يستزيد انهمارها دواهٍ شداد للخلائق جائحه
دهتهم واصداء الديار امامها زواقٍ وغربانٌ المنية صائحه
صلتهم لظى حرب ضروس دماءهم اطلّت فشجّت في الصحاصح ساتحه
دماء الملايين التي طمّ سيلها فاضحت بهِ الانجاد كالغور طافحه
دماء احلتها زبانية الشقا فكانت لها في هذه الحرب سافحه
بحرب محيا الشام غشّت خطوبها لهُ بسموم الضيم والضنك لافحه

***

بلاد كجنات النعيم وطيبها غواليهِ في اقصى البسيطة نافحه
ولكن هذي الحرب ردّت نعيمها جحيماً والقاها البلاء مطارحه
وعاثت بها ايدي الرزايا لسعدها بصمصام نحس مرهف الحدّ ذابحه
وشدّت عليها غفلة الحصر فاغتدت تقلّب تحت البهظ والخسف رازحه
وصدّت على الاهلين حتى منافذ الـ هواء اليهم تاردى الباب فاتحه
فان لم يموتوا فيهِ جوعاً فمن جرى تباريح كرب ساخنات وبارحه
وكم من عزيز بينهم قد قضى وما سمعنا عليهِ بيننا صوت نائحه

يشق عليه الاهل ثم جيوبهم ونحن هنا نشقى الحنا وسارحه

∴

كذا غاب ابرهيم عنا ونحن في توقع انوار بلقياهُ لائحه
تناقلت الانواء همساً نعيهُ وظلت تورّي عنهُ قبر مصارحه
الى ان تجلّى الامر فيه واصبحت حقيقته لا تقبل الشكّ واضحه
اجل دار ابرهيم شيخ العلوم والـ معارف شطت عن محييه نازحه
مضى تاركاً في الشرق آثار فضله نوافحها تبقى مدى الدهر فائحه
رشق على قلب اليراع فراقهُ فقلّم شقّيه ودقّ جوانحه
وفقدانهُ مال القريض وآلم الـ حصاب به انطابه وجحاجحه
وهل بعد ابرهيم للناس مطمع باجمعهم في روضة الشعر صادحه
ومن بعدهُ ان انشد الشعر شنفت فصائدهُ الاسماع بالدرّ نافحه
وهل بعدهُ في سامر الحي تشتهي مساجلة زند القرائح قادحه
ومن بعده للكيح والحلّ ان عصت علينا عويصاتُ المسائل جامحه
وهل بعدهُ من صاغ لامارة الـ بيان فيحميه ويرعى مصالحه
وهل تسمح الايام للناس يا ترى بثانٍ لهُ هيهات ليست بسامحه

∴

عليك أبا سلمى العزيز حشاشتي تفيض جوى والعين بالدم نافحه
فانظر فتلقى ابيك وابتك الالى نيلك فيهم كان اكبر قادحه
فجلاك في مصر يذوبان لوعةً و« فجلاك » في بيروت تخب نائحه
فقدناك فقد البدر صار بتمّه تعدّتهُ آثار الهدى عنهُ ماحه
وليس عجيباً ان يجرّعنا الاسى عليك كؤوساً بالشجى طافحه
فقد كنت ريحان النفوس وطيبها وكانت ترى جذلانة بك فارحه
ولما افترقنا منذ عامين كان بال تلاقي تأسّينا فتراح صالحه
وما كان في حسباننا ان فرصة ال لقا واجتماع الشمل ليست بسانحه
فمدك الرحمن بالعفو والرضى وعمك منهُ رحمة عنك صالحه
ختمت بتقواهُ الحياة هنا فهل حياة هناك أنعم بأين فاتحه

اسعد داغر